من أخبار المسافرين (٣)

مسافرون صدقوا ما عاهدوا الله عليه

وذكَّرني حُلْو الزمان وطِيبَهُ مجالسُ قومٍ يملؤون المجالِسا
حديثاً وإيماناً وفقهاً وحكمةً وبِرّاً ومعروفاً وإلفاً مؤانِسَا

هذا غيضٌ من فيض، وقطرةٌ من بحر، وقصةٌ من آلاف القصص التي سطرها العظماء بدمائهم على جبين التاريخ، وخبر من آلاف الأخبار التي رواها الدهر لأساطين الحق، وحملة المبدأ، وحرَّاس العقيدة، هذه قصة من قصص المسافرين العظماء، والأبطال النجباء، وصُحبة سيد الأنبياء، اخترتها لما فيها من العبر العظيمة، والصفات الكريمة، والتضحيات الجسيمة، لما فيها من حبٍّ لدين الله ونصرة لرسوله، وكرامات لأوليائه، سفرهم كان طاعة لله، وجهاداً في سبيله، وامتثالاً لأمر رسوله ﷺ.

موعدُ السفر في شهر صفر، السنة الرابعة للهجرة، الانطلاق من المدينة المنورة والوجهة إلى مكة المكرمة، فإلى القصة:

بعث رسول الله ﷺ إلى أهل مكة سَرِيَّةً عَيْناً، وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهدْأة، بينَ عُسْفَان ومكَّةَ، ذُكِرُوا لحيٍّ من هُذَيْلٍ يُقالُ لهم: بنو لحيان، فنفروا لهم بقريب من مائة رجلٍ رامٍ، فاقتصُّوا آثارهُمْ، فلما أحسَّ بهم عاصمٌ وأصحابه، لجؤوا إلى موضع، فأحاط بهم القومُ، فقالوا: انزلوا، فأعطوا بأيديكم ولكم العهد والميثاق أن لا نقتل منكم أحداً، فقال عاصم بن ثابت: أيُّها القوم أما أنا، فلا أنزل على ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك، ﷺ، فرموهم بالنبل فقتلوا عاصماً، ونزل إليهم ثلاثة نفر على العهد

والميثاق، منهم خبيب، وزيد بن الدَّثِنةِ، ورجلٌ آخر. فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسِّيهمْ، فربطوهم بها، قال الرجل الثالث: هذا أولُ الغدر والله لا أصحبكم، إن لي بهؤلاء أسوة، يُريدُ القتلى، فجرُّوه وعالجوه، فأبى أن يصحبهم، فقتلوه، وانطلقوا بخُبَيْب، وزيد بن الدثنة، حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر، فابتاع بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف خُبَيْباً، وكان خُبَيْب هو قتَلَ الحارث يوم بدر، فلبث خبيبٌ عندهم أسيراً حتى أجمعوا على قتله، فاستعار من بعض بنات الحارث مُوسَى يستحدُّ بها، فأعارته، فدرج بُنيٌّ لها وهي غافلة حتى أتاهُ، فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده، ففزعت فزعة عرفها خُبَيْبٌ، فقال: أتخشين أن أقتله ما كنت لأفعل ذلك! قالت ـ أي فيما بعد وقد أسلمت ـ: والله ما رأيت أسيراً خيراً من خبيب، فوالله لقد وجدتُهُ يوماً يأكل قِطْفاً من عنب في يده وإنه لموثوقٌ بالحديد وما بمكة من ثمرةٍ، وكانت تقولُ: إنه لرزقٌ رزقه الله خبيباً، فلما خرجوا به من الحرم ليقتُلُوه في الحلِّ، قال لهم خبيبٌ: دعُوني أُصلي ركعتين، فتركوه، فركع ركعتين، فقال: والله لولا أن تَحْسَبُوا أنَّ ما بي جزَعٌ لزِدْتُ: اللهم أحْصِهِمْ عدداً، واقتلُهم بدداً، ولا تُبْقِ منهم أحداً، وقال:

فلستُ أبالي حين أُقتلُ مُسْلماً ... على أي جَنْبٍ كان لله مصْرَعي
وذلك في ذات الإلهِ وإنْ يشَأْ ... يُبَارِكُ على أوْصالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

ثم إن النبي ﷺ أخبر أصحابه يوم أُصيبوا خبرهم.

وقد بعث ناسٌ من كفار قريش إلى عاصم بن ثابت حين حُدثوا أنه قُتل

أن يأتوا بشيء منه يُعْرَف، وكان قتل رجلاً من عظمائهم، فبعث الله لعاصم مثل الظُّلَّة من الدَّبْرِ - يعني: النحل - فحمَتْهُ من رُسُلِهِمْ، فلم يَقْدِرُوا أن يقطعوا منه شيئاً.

قالوا: دعوه حتى يمسي فتذهب عنه الدبر، فبعث الله الوادي بالسيل، فاحتمل عاصماً فذهب به.

وقد كان عاصم قد أعطى الله عهداً أن لا يمسه مشركٌ، ولا يمس مشركاً أبداً تنجساً، فكان عمر بن الخطاب يقول حين بلغه أن الدبر منعته: يحفظ الله العبد المؤمن، كان عاصم نذر أن لا يمسه مشرك، ولا يمس مشركاً أبداً في حياته. فمنعه الله بعد وفاته، كما امتنع منه في حياته.

وأما زيد بن الدثنة، فابتاعه صفوان بن أمية، ليقتله بأبيه، فبعثه مع مولى له إلى التنعيم وأخرجه من الحرم ليقتله، واجتمع رهطٌ من قريش فيهم أبوسفيان بن حرب فقال له أبوسفيان حين قدم ليقتل: أنشدك بالله يازيد أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي. قال أبوسفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً. ثم قتله مولى صفوان بعد ذلك، فلحق بإخوانه الشهداء. رضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم، وجمعنا بهم في جنات النعيم إنه سميع مجيب.